القاضي عياض

أعـــلام المؤرخـــين

القاضي عياض

هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون، أبو الفضل اليحصبيّ السبتي الغرناطي الأندلسي القاضي الإمام العلاّمة.

ولد بمدينة سبتة في شهر شعبان سنة ستّ وتسعين وأربعمائة ٤٩٦هـ؛ لذا فهو أندلسي الأصل، قال ابنه محمد: " كان أجدادنا في القديم بالأندلس ثم انتقلوا إلى مدينة فاس، وكان لهم استقرار بالقيروان،
لا أدري قبل حلولهم بالأندلس أو بعد ذلك، وانتقل عمرون إلى سبتة بعد سكنى فاس.

في سبيل العلم رحل عياض إلى الأندلس سنة تسع وخمسمائة ٥٠٩هـ طالبًا للعلم، فأخذ بقرطبة عن مجموعة غير قليلة من العلماء، وأجاز له بعضهم، ثم انتقل إلى المشرق فأخذ عن مجموعة أخرى من العلماء؛ فهو بذلك جمع إلى جانب علم المغاربة علوم المشارقة حيث نهل من المنبع والمصبّ معًا.

وتذكر المصادر القديمة عشرات الشيوخ والأساتذة الذين تلمذ لهم الرجل؛ ففي قرطبة أخذ عن القاضي أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين، كما أخذ عن أبي الحسين بن سراج وأبي محمد بن عتاب وغيرهم، وأجاز له أبو علي الغساني.

وفي المشرق: أخذ عن القاضي أبي علي حسين بن محمد الصدفي، وأخذ أيضا عن أبي عبد الله المازني، وأجاز له الشيخ أبو بكر الطرطوشي، وذكر ولده محمد مجموعة أخرى من الشيوخ منهم: أحمد ابن بقي، وأحمد بن محمد بن محمد بن مكحول، وأبو الطاهر أحمد بن محمد السلفي، والحسن بن محمد بن سكره

وغيرهم، وقال صاحب الصلة البشكوالية - بعد أن ذكر بعض شيوخه: وقد اجتمع له من الشيوخ بين من سمع منه وبين من أجاز له مائة شيخ.

وكانت الحصيلة العلميّة التي استقاها من هؤلاء العلماء كبيرة جدًا؛ يقولون: إنه صار إمام وقته في الحديث وعلومه، والتفسير وعلومه، كما صار من أهل التفنن في العلم، واليقظة والفهم، حتى إنه بعد عودته من رحلاته العلمية أجلسه أهل سبتة للمناظرة في المدوّنة وهو ابن ثلاثين سنة أو ينيف عنها، ثم أُجلس للشورى، ثم ولي قضاء بلده مدة طويلة، حمدت سيرته فيها، ثم نقل إلى قضاء غرناطة في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ٥٣١هـ.

ولقد أشارت المصادر القديمة بمكانته العلميّة؛ فقالت: إنه كان فقيهًا أصوليًّا، عالمًا بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، بصيرًا بالأحكام، عاقدًا للشروط، بصيرًا حافظًا لمذهب مالك، ريّانًا في علم الأدب، خطيبًا بليغًا.

كما تحدثت عن كريم أخلاقه، فقالت: إنه كان صبورًا حليمًا، جميل العشرة، جوادًا سمحًا كثير الصدقة، دؤوبًا على العمل، صلبًا في الحقّ.

ونظراً لمكانته الدينية والعلمية قرّبه الموّحدون، حكّام المغرب في عصره، حيث رحل إلى أميرهم بمدينة سلا؛ فأجزل له العطاء وأوجب برّه، وظلّ عياض في رحابهم إلى أن اضطربت أمور الموحّدين عام ثلاثة وأربعين وخمسمائة ٥٤٣هـ، حيث رحل إلى مراكش مشرّدا، بعيدًا عن وطنه، فكانت بها وفاته في شهر جمادى الثانية، وقيل في شهر رمضان سنة أربع وأربعين وخمسمائة

٥٤٤هـ، ودفن في باب أيلان. رحمه الله.

وصنّف القاضي عياض مجموعة ضخمة من المصنفات أهمها:

١ - الإعلام بحدود قواعد الإسلام.

٢ - الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع.

٣ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك، لمعرفة أعلام مذهب مالك.

٤ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى.

٥ - مشارق الأنوار في تفسير غريب حديث الموطأ والبخاري ومسلم.

٦ - المعلم في شرح مسلم.

وللأسف الشديد ضاع معظم مؤلفاته التي تقدر بعشرين مؤلفًا، ولم يبق منها إلا النّزر اليسير، وأهمّ الكتب التي أفلتت من يد الزمن (كتاب الشفا) الذي يبرز عقليّة الرجل ومنهجه في الفهم وطريقته في التأليف[1].

وكان لما ظهر أمر الموحدين بادر إلى المسابقة بالدخول في طاعتهم ورحل إلى لقاء أميرهم بمدينة سلا، فأجزل صلته، وأوجب بره، إلى أن اضطربت أمور الموحدين عام ثلاثة وأربعين وخمسمائة فتلاشت حاله، ولحق بمراكش مشردًا به عن وطنه فكانت بها وفاته.

كان مولد القاضي عياض بسبتة في شهر شعبان سنة ست

(١) د. أحمد جمال العمري، القاضي عياض ومفهومه للإعجاز القرآني، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤ /١٦٥.

وتسعين وأربعمائة، وتوفي بمراكش في شهر جمادى الأخيرة وقيل: في شهر رمضان سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وقيل: إنه مات مسمومًا سمه يهودي.

ودفن رحمه الله تعالى بباب إيلان داخل المدينة.

وقيل: إنه قتل بالرماح لكونه أنكر عصمة ابن تومرت.

وكان القاضي - رحمه الله - أبو الفضل إمام وقته في الحديث وعلومه، عالمًا بالتفسير وجميع علومه، فقيهًا أصوليًا عالمًا بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، بصيرًا بالأحكام، عاقدًا للشروط، بصيرًا حافظًا لمذهب مالك رحمه الله تعالى، شاعرًا مجيدًا وبانًا من علم الأدب، خطيبًا بليغًا صبورًا حليمًا جميل العشرة، جوادًا سمحًا كثير الصدقة، دؤوبًا على العمل، صلبًا في الحق.

وكان لا يخطب إلا بإنشائه، وله شعر كثير حسن رائق فمنه قوله:

يا من تحمل عني غير مكترث ::: لكنه للضنى والسقم أوصى بي
تركتني مسهام القلب ذا حرق ::: أخا جوى وتباريح وأوصاب
أراقب النجم في جنح الدجى سهرًا ::: كأنني راصد للنجم أو صابي

وله رحمه الله تعالى:

الله يعلم أني منذ لم أركم ::: كطائر خانه ريش الجناحين
ولو قدرت ركبت الريح نحوكم ::: فإن بعدكم عني جنى حنيني

وله من أبيات:

إن البخيل بلحظه أو لفظه ::: أو عطفه أو رقه لبخيل

وله في خامات الزرع بينها شقائق النعمان:

انظر إلى الزرع وخاماته ::: تحكي وقد ماست أمام الرياح

كتيبـــة خضـــراء مهزومـــة ::: شـقائق النعمـان فيهـا جـراح

وله في لزوم ما لا يلزم:

إذا ما نشـرت بسـاط انبسـاطٍ ::: فعنـه فـديتك فـاطو المزاحـا

فإن المـزاح علـى مـا حكـاه ::: أولو العلم قبلي عن العلم زاحـا

ومدحه أبو الحسن بن هارون المالقي الفقيه المشاور بقوله:

ظلموا عياضاً وهو يحلـم عنـهم ::: والظلـم بـين العـالمين قـديم

جعلوا مكان الراء عينـاً في اسمـه ::: كـي يكتمـوه فإنـه معلـوم

لولاه ما ناحـت أبـاطح سـبتةٍ ::: والروض حـول فنائهـا معـدوم

خطبة القاضي عياض التي ضمنها سور القرآن:

وخطب القاضي أبو الفضل عياض خطبة ضمنها سور القرآن فقال

الحمد لله الذي افتتح بالحمد كلامه وبين في سورة البقرة أحكامه ومد في آل عمران والنساء مائدة الأنعام ليتم إنعامه وجعل في الأعراف أنفال توبة يونس وآلر كتاب أحكمت آياته بمجاورة يوسف الصديق في دار الكرامة وسبح الرعد بحمده وجعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم ليؤمن أهل الحجر أنه إذا أتى أمر الله سبحانه فلا كهف ولا ملجأ إلا إليه ولا يظلمون قلامة وجعل في حروف كهيعص سرًّا مكنونًا قدم بسببه طه على سائر الأنبياء ليظهر إجلاله وإعظامه وأوضح الأمر حتى حج المؤمنون بنور الفرقان والشعراء صاروا كالنمل ذلا وصغارًا لعظمته وظهرت قصص العنكبوت فآمن به الروم وأيقنوا أنه كلام الحي القيوم نزل به الروح الأمين على زين من واقى يوم القيامة وأوضح لقمان الحكمة بالأمر بالسجود

لرب الأحزاب فسبا فاطر السماوات أهل الطاغوت وأكسبهم ذلا وخزيًا وحسرة وندامة وأمد يس بتأييد الصافات فصاد الزمر يوم بدره وأوقع بهم ما أوقع صناديدهم في القليب مكدوس ومكبوب حين شالت بهم النعامة وغفر غافر الذنب وقابل التوب للبدريين رضي الله عنهم ما تقدم وما تأخر حين فصلت كلمات الله فذل من حقت عليه كلمة العذاب وأيس من السلامة ذلك بأن أمرهم شورى بينهم وشغلهم زخرف الآخرة عن دخان الدنيا فجثوا أمام الأحقاف بقتال أعداء محمد يمينه وشماله وخلفه وأمامه فأعطوا الفتح وبونوا حجرات الجنان وحين تلوا ق والقرآن المجيد وتدبروا جواب قسم الذاريات والطور لاح لهم نجم الحقيقة وانشق لهم قمر اليقين فنافروا السآمة ذلك بأنهم أمنهم الرحمن إذا وقعت الواقعة.

واعترف بالضعف لهم الحديد وهزم المجادلون وأخرجوا من ديارهم لأول الحشر يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين حين نافروا السلامة.

أحمده حمد من امتحنته صفوف الجموع في نفق التغابن فطلق الحرمات حين اعتبر الملك وعامه وقد سمع صريف القلم وكأنه بالحاقة والمعارج يمينه وشماله وخلفه وأمامه وقد ناح نوح الجن فتزمل وتدثر فرقًا من يوم القيامة وأنس بمرسلات النبأ فنزع العبوس من تحت كور العمامة وظهر له بالانفطار التطفيف فانشقت بروج الطارق بتسبيح الملك الأعلى وغشيته الشهامة فورب الفجر والبلد والشمس والليل والضحى لقد انشرحت صدور المتقين حين تلوا سورة التين وعلق الإيمان بقلوبهم فكل على قدر مقامه يبين ولم يكونوا بمنفكين دهرهم ليله ونهاره وصيامه وقيامه إذا ذكروا الزلزلة

ركبوا العاديات ليطفئوا نور القارعة ولم يلههم التكاثر حين تلوا سورة العصر والهمزة وتمثلوا بأصحاب الفيل:{فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴿٤﴾} [قريش: ٣ - ٤]، أرأيتهم كيف جعلوا على رءوسهم من الكور عمامة فالكوثر مكتوب لهم والكافرون خذلوا وهم نصروا وعدل بهم عن لهب الطامة وبسورة الإخلاص قروا وسعدوا وبرب الفلق والناس استعاذوا فأعيذوا من كل حزن وهم وغم وندامة وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله شهادة تنال بها منازل الكرامة صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه ما غردت في الأيك حمامة [1].

* * *

(١) قلائد العقيان: ٢٢٢، الصلة ٢ / ٤٥٣، ٤٥٤، الخريدة في ١٢ / ١٧٣ - ١٧٥، بغية الملتمس رقم (١٢٦٩)، إنباه الرواة ٢ / ٣٦٣، ٣٦٤، التكملة لابن الأبار: ٦٩٤، معجم ابن الأبار: ٣٠٦ - ٣١٠، تهذيب الأسماء واللغات ٢ / ٤٣، ٤٤، وفيات الأعيان ٣ / ٤٨٣ - ٤٨٥، المختصر ٣ / ٢٢، تاريخ الإسلام: وفيات ٥٤٤، دول الإسلام ٢ / ٦١، العبر ٤ / ١٢٢، ١٢٣، تذكرة الحفاظ ٤ / ١٣٠٤ - ١٣٠٧، معجم الوادي آشي: ٢١١ - ٢١٤، تتمة المختصر ٢ / ٧٨، البداية والنهاية ١٢ / ٢٢٥، الإحاطة في أخبار غرناطة ٤ / ٢٢٢ - ٢٣٠، المرقبة العليا للنباهي: ١٠١، الديباج المذهب ٢ / ٤٦ - ٥١، طبقات ابن قنفذ: ٢٨٠، النجوم الزاهرة ٥ / ٢٨٥، طبقات الحفاظ للسيوطي: ٤٨٠، مفتاح السعادة ٢ / ١٤٩، جذوة الاقتباس: ٢٧٧، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض للمقري، نفح الطيب ٧ / ٣٣٣ - ٣٣٥، كشف الظنون ١٢٧، ١٥٨، ٢٤٨، ٣٩٥، ٥٧٧، ١٠٥٢، ١١٨٦، ١٢١١، ١٧٧٩، ١٩٦١، شذرات الذهب ٤ / ١٣٨، ١٣٩، تاج العروس ١ / ٢١٦ (حصب)، أجلى المساند: ٣١، روضات الجنات ٥٠٦، ٥٠٧، هدية العارفين ١ / ٨٠٥، إيضاح المكنون ٢ / ٢٤٣، ٢٤٤، سلوة الأنفاس ١ / ٥١، فهرس الفهارس ٢ / ١٨٣ - ١٨٩، معجم المطبوعات: ١٣٩٧، شجرة النور الزكية ١ / ١٤٠، ١٤١، الفهرس التمهيدي: ٣٨٦، تاريخ الفكر الأندلسي: ٢٨٣، تاريخ بروكلمان ٦ / ٢٦٦ - ٢٧٥، سير أعلام النبلاء، ٢٠ /٢١٧، جمهرة خطب العرب، ٣ /٢٢٠.